٤٦ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

الفصل الرابع عشر

الصناعة

من المحزن أن يوازن المرء بين فقر مصر الآن، وبين رخائها قديماً حينما كان اختلاف الصناعات وأناقتها وإتقانها تثير إعجاب الأمم المجاورة. وكان المصريون في غنى عن التجارة الخارجية لتنمية الثروة أو زيادة الرفاهية. وقد دل الكشف عن الآثار على أن المصريين انفردوا إلى حد كبير في السمو بالفنون في عهد موسى وقبل ذلك أيضاً. ولم يكن الفراعنة والكهنة وقواد الجيش في تلك الأزمنة الغابرة يعيشون وحدهم في ترف رفيع ويلبسون أرق الأنسجة الكتانية ويجلسون على سرر وكراسي نستخدمها نماذج لأثاث أبهائنا الحديثة، بل كان الكثير من أغنياء المزارعين وغيرهم من الأفراد كذلك. ولا تزال الطبيعة تجود بنعمها على سكان وادي النيل، كما كانت في قديم الزمن. غير أن المصريين لم يعودوا ينعمون لعدة أجيال بحكومة مستقرة، فكان كل من الولاة المتعاقبين في هذه المدة الطويلة يعمد إلى تنمية ثروته الخاصة، لعدم توطد ولايته. وهكذا هلك بالتدريج كثير من المصريين وقضى على الباقين أن يعيشوا في عوز أليم. وإذ كان الذكور من السكان يكاد عددهم يزيد على القدر اللازم لزراعة الأراضي التي يغمرها الفيضان أو يسهل ريها بالوسائل الصناعية، كان عدد هؤلاء الذين يحترفون الصناعة في هذا البلد شديد القلة نسبياً. ولا تتم أعمال المصريين عن براعة كبيرة لقلة التنافس وعدم تشجيع الأغنياء. غير أن انحطاط الصناعات اليدوية يرجع إلى حد بعيد إلى سبب آخر وهو أن السلطان سليم التركي بعد أن غزا مصر نقل على ما قال الجبرتي[1] عدداً كبيراً من البارعين في الحرف التي لا تمارس في تركيا فقضى بذلك على أكثر من خمسين صناعة يدوية في مصر

حرم الإسلام كما سبق أن بينت، استخدام التصوير والنحت في رسم الأحياء، غير أن بعض المسلمين المصريين يحاول رسم الرجال والأسود والجمال وغيرها من الحيوان والزهور والقوارب وذلك على الأخص لزخرفة واجهات الحوانيت وأبواب الحجاج كما يقولون، وإن كانت محاولاتهم هذه تفوقها رسوم صغار الأطفال عندنا. ولكن الدين الإسلامي يسر الصناعة خاصة باستلزامه أن يعرف كل امرىء فناً أو عملاً يمكنه وقت الضرورة من سد حاجته وإعالة من يتولى أمرهم والقيام بواجباته الدينية والأدبية. ويبرع المصريون على الأكثر في فن العمارة، فتجد أجمل نماذج العمارة العربية في العاصمة المصرية وضواحيها. وليست المساجد والأبنية العامة الأخرى وحدها هي التي تستحق الاعتبار لعظمتها وجمالها، ولكن الكثير من المساكن الخاصة أيضاً تثير الإعجاب ولا سيما هيئتها الداخلية وزخرفها. على أن هذا الفن كأغلب الفنون الأخرى انحط كثيراً في السنوات الأخيرة؛ فقد أخذ المصريون عن الأتراك طرازاً جديداً ساذج الشكل بعضه شرقي وبعضه أوربي وفضلوه على العربي. وتتم الأبنية ذات الطراز القديم، أبوابها وسقوفها وبلاطها، التي سبق وصفها، عن ذوق فريد. وكذلك أكثر الصناعات المصرية تتم عن الذوق وإن كان الكثير منها ينقصه الإتقان. وكان الخراطون، وشغلهم الأول عمل الشبابيك، كثيري العدد، وكان عملهم حينذاك أكثر إتقاناً: أما الآن فقد قلت أعمالهم، لأن نوافذ

---

(١) في اجتماء كتابه (المؤلف)

قال الجبرتي في الجزء الأول من تاريخه عند ذكر ملوك الجراكسة: «وأخذ (أي السلطان سليم) خفية ما انتقاه من أرباب الصنائع التي لم توجد في بلاده بحيث أنه فقد من مصر نيف وخمسون صنعة» (المترجم)

المنازل الحديثة تصنع من الزجاج . ولا يظهر المصريون المحدثون فى صناعة الزجاج التى اشتهروا بها قديماً مهارة كبيرة ، فقد انحط عندهم فن الزجاج الملون ؛ غير أنهم لا يزالون موضع الإعجاب فى صناعة النوافذ الزجاجية وإن لم يكن ذلك بقدر ما كان فى السنوات الماضية قبل أن ينقص تفضيل الطرز الجديد من أعمالهم . والصناعة الخزفية فى مصر غليظة ، وهى تشمل عمل القلل والجرار لحفظ المياه وتبريدها . ويستحق المصريون الشهرة التى نالوها فى مهارة إعدادهم السختيان . ويستعمل المصريون السعف وأوراق النخيل فى صناعات مختلفة فيصنعون من السعف الأقفاص والكراسى والصناديق والسرر الخ ... ومن الأوراق السلال والقفف والحصر والمكانس والمذبات ، وغير ذلك من الآلات . ويفتلون من ألياف النخيل أكثر الحبال المصرية . ويصنعون أحسن الحصر التى يستخدمونها صيفاً بدل البسط ، من البردى . وقد فقدت مصر الشهرة التى نعمت بها قديماً فى صناعة الكتان الرقيق ؛ فاللابس الكتانية والقطنية والصوفية التى تغزل فى هذا البلد غليظة الصنف حقيرته

اشتهر المصريون طويلاً فى صناعة التفريخ . ويبدو أن هذه الصناعة كانت شائعة فى مصر فى سالف الأزمنة وإن وصفها الكتاب الأولون وصفاً غامضاً . وهم يطلقون فى الوجه البحرى على البناء الذى يتم فيه التفريخ « معمل الفراخ » وفى الصعيد « معمل الفروج » . وفى الوجه البحرى أكثر من مائة معمل ، وفى الصعيد أكثر من نصف ذلك العدد . ويعين أغلب مراقبى هذه المعامل إن لم يكن جميعهم من الأقباط . وتفرض الحكومة على هذه المعامل ضريبة . ويبنى المعمل بالآجر أو اللبن ويتكون من أفران ومواقد صغيرة للنار على صفين متوازيين يفصل بينهما دهليز معقود ضيق . ويبلغ حجم كل من الأفران تسع أقدام أو عشرا طولاً تقريباً ، وثمانى أقدام عرضاً ، وخمسا أو ستا ارتفاعاً . ويعلو كلا منها موقد مقبو لا يختلف عنها حجماً والأفضل أن يكون أقل ارتفاعاً . ويتصل الفرن بالدهليز بواسطة فتحة تسمح للانسان بالدخول كما يتصل الموقد بفتحة مماثلة . وتتصل المواقد فى الصف نفسه بعضها ببعض أيضاً ولكل كوة فى قبوه لمرور الدخان ولا تفتح إلا عرضاً . وكذلك الدهليز يوجد به عدة كوى كالسابقة فى سقفه المعقود . ويوضع البيض فى الأفران ، فوق الحصر أو على القش عادة ، على طبقات ثلاث يعلو بعضها بعضاً . ويحرقون السرقين (الجلة) فى المواقد التى تعلو الأفران ثم يقفلون مدخل المعمل بإحكام . ويتقدم المعمل حجرتان أو ثلاث حجرات صغيرة للمراقب والوقود والفراخ الناقفة حديثاً . ويجرى هذا العمل شهرين أو ثلاثة فى صيف كل عام . ويبدأ التفريخ مبكراً فى الصعيد . ويشمل كل معمل بين اثنى عشر وأربعة وعشرين فرناً ، ويتلقى حوالى مائة وخمسين ألف بيضة فى الموسم السنوى ، يخيب منها ربعها أو ثلثها . ويورد الفلاح البيض فيفحصه المراقب ويناول الفلاح عادة مقابل كل بيضتين فرخة صغيرة . ويستعمل نصف الأفران فى الأيام العشرة الأولى ، وتوقد النار فى المواقد العشرة التى تعلوها ، ثم تطفأ فى اليوم الحادى عشر . وتوقد المواقد الأخرى ويوضع البيض الطازج فى أسفل الأفران . وفى اليوم التالى ينقل بعض البيض من الأفران السابقة ويوضع فى رماد مواقدها . وتظل الحرارة أثناء العملية بين مائة ومائة وثلاث درجات بقياس فارنهايت . ويعرف القائم بهذا العمل من تجاربه الطويلة الحرارة اللازمة لنجاح العملية دون الاستعانة بآلة ترشده لتعوده هذا العمل من صغره . وفى اليوم العشرين ينقف بعض البيض الموضوع أولاً . ولكن أغلبه يفرخ فى اليوم الحادى والعشرين . وتوضع الفراريج الضعيفة فى الدهليز وما بقى يوضع فى أقصى الغرف الداخلية حيث تبقى يوماً أو اثنين قبل أن تسلم إلى مستحقيها . وعند ما تنقف البيضات الأولى ونصف الثانية تتلقى الأفران التى كانت فيها دفعة ثالثة ، ثم توضع دفعة رابعة بالطريقة نفسها عند ما تفرخ الدفعة الثانية . ولا يقل الدجاج الذى نقف بهذه الطريقة طعماً عن دجاج البيض الذى يحتضن طبيعياً . ويقل دجاج مصر وبيضه فى كلتا الحالتين حجما وطعماً عن دجاج بلادنا وبيضه . وقد وجدت فى إحدى الجرائد المصرية التى تنشر بأمر الحكومة (العدد ٢٤٨ : ١٨ رمضان سنة ١٢٤٦ ، ٣ مارس سنة ١٨٣١) الإحصاء التالى :

	الوجه البحرى	الوجه القبلى
عدد معامل التفريخ فى العام الجارى	١٠٥	٥٩
عدد البيض المستخدم	١٩٬٣٢٥٬٦٠٠	٦٬٨٧٨٬٩٠٠
عدد البيض المعطوب	٦٬٢٥٥٬٨٦٧	٢٬٥٢٩٬٣٦٠
عدد البيض المفقس	٣٬٠٦٩٬٧٣٣	٤٬٣٤٩٬٢٤٠

لا تزال تجارة مصر عظيمة وإن انحط شأنها كثيراً منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بين أوربا والهند، ونتيجة لسياسة محمد علي وخلفائه باحتكار التجارة والاستيلاء على البضائع. وقد تقدمت التجارة كثيراً في السنوات القليلة الأخيرة لاستخدام البواخر الكثيرة بين الأسكندرية وانجلترا وفرنسا والنمسا من ناحية، وبين السويس والهند من ناحية أخرى، وبإنشاء السكك الحديدية في الوجه البحري.

تستورد مصر الأقمشة الصوفية من أوربا ومن فرنسا خاصة، والشيت والموصلي الساذج والمصور للعمائم من اسكتلندة، والحرير والمخمل والكريشة والشيلان المقلدة عن الكشميري من سكوتلندا وانجلترا وفرنسا، وورق الكتابة من البندقية خاصة، والأسلحة النارية والنصال المستقيمة من ألمانيا وتستورد هذه للنوبيين الخ. والساعات والفناجين والأواني الخزفية والزجاجية المختلفة وأغلبها من ألمانيا والخردة والألواح الخشبية والمعادن والخرز والنبيذ وغيره من المشروبات. وكذلك يستوردون الرقيق الأبيض والحرير والمناديل والفوط المطرزة ومباسم الشبك والبوابيج وضروبا من السلع المصنوعة والأدوات النحاسية والبرنزية الخ.

من الآستانة، ويستوردون من آسيا الصغرى البسط وسجاجيد الصلاة والتين الخ، ومن سورية الدخان والحرير المخططة والعباءات والصابون، ومن جزيرة العرب البن والتوابل وعقاقير عديدة والسلع الهندية كالشيلان والحرير الموصلية الخ، ومن الحبشة وسنار أقراص التمر الهندي والصموغ والسنا المكي، ومن الغرب، أي شمال أفريقية غرب مصر، الطرابيش والبرانس والأحرمة وأحذية الجلد السختيان الأصفر.

وأهم ما يصدر إلى أوربا القمح والذرة والأرز والفول والقطن والعنب واللب والنيلج والبن والتوابل المختلفة والصموغ والسنى والعاج وريش النعام، وإلى تركيا العبيد السود والأحباش ذكوراً وأناثاً والأغاوات والأرز والبن والتوابل والحناء الخ، وإلى سوريا العبيد والأرز الخ، وإلى جزيرة العرب الحبوب خاصة وإلى سنار والبلدان المجاورة القطن والكتان والصوف وبعض الحرير المخططة السورية والمصرية والأبسطة الصغيرة والخرز وحلى أخرى، والصابون والسيوف المستقيمة السابق ذكرها والأسلحة النارية والأدوات النحاسية وورق الكتابة.

(يتبع)

عبد الله خيرت

سكك حديد الحكومة المصرية

ازدحام الركاب بمداخل العربات

يتشرف المدير العام بلفات نظر جمهور المسافرين بقطارات السكة الحديد إلى أنه طبقاً للفقرة السادسة من القرار الوزاري رقم ٤ سنة ١٩٢٦ لا يجوز لأي شخص الوقوف في مداخل العربات أثناء سير القطارات

فقد اعتاد بعض المسافرين الوقوف في تلك المداخل أثناء سير القطارات حتى في الأحوال التي لا تكون فيها هذه القطارات مزدحمة بالركاب فأدى ذلك إلى وقوع بعض حوادث الإصابات والسقوط التي يؤسف لها.

فالمرجو من الجمهور حرصاً على سلامته أن يمتنع بتاتاً عن الوقوف في هذه الأماكن حتى لا يقع تحت طائلة العقوبات التي فرضها القرار الوزاري المشار إليه.